وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته[١] .

والجاحظ يقدم بذلك نموذجا واحدا لمجال من الكلام هو « الترفيه » حيث تكون صياغة الفكاهات والنوادر — كما يقول — خالية من الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وتنساب على ما يقتضيه الموقف ، فيها سخف محبوب وألفاظ أعجمية وظواهر لهجية ، فينبغى قبولها كما وردت دون فرض مستوى من الكلام على مستوى آخر ، والنوادر والفكاهات تكون قطاعا مهما من حياة الناس إذا تأكدت بينهم المعرفة والمكاشفة ، ويتحقق ذلك غالباً فى بيئة اللهجة المحلية .

والآن ، نأتى إلى الفكرة الثالثة عن موقف النحاة من الصلة بين الفصحى واللهجات ،

وينبغى منذ البداية التفريق بين اعتبارين فى النظر إلى هذين المستويين :

الأول : اعتبار كل منهما مستوى خاصا ، له مجالات استعماله التى يتفرد بها ، واعتبار كل لهجة من لهجات القبائل مستوى خاصا متميزا عن مستوى غيرها من اللهجات الأخرى من ناحية وعن اللغة الفصحى من ناحية أخرى ، وهذا التفرد والتمايز بين الفصحى واللهجات يكون فى معانى الألفاظ كما يكون فى نطق الأصوات والصيغ وتأليف الكلام والإعراب ، وهو أمر لم يصنعه أحد بنية العمد ، ولم ينزل من السماء — كما يقول أصحاب التوقيف — بل صنعه عرف الناطقين للغة أو اللهجة بفعل التطور الذى لا يد لأحد على إيقافه أو تجميده .

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٢٨٢ .